

محاضرة النقد والبلاغة / الفرقة : الأولى د/ إيمان عبد السميع مقياس الاحتكام إلى آراء متقدمي العلماء والرواة الثقات :

كان الاحتكام إلى آراء متقدمي العلماء والرواة الثقات الحجة البارزة في تقديم الشعراء وتأخيرهم ؛ فالعلماء المتخصصون بما لديهم من قوى الفحص الدقيق ، والملاحظة الجادة ، والدُرْبَةِ والمِرَاس بالشعر، هم وحدهم القادرون على حماية الشعر وتخليصه مما علقَ به ، ودُسَّ فيه ، وعلى تمييز صحيحه من منحوله.

بيد أن اعتماد آراء العلماء وأحكامهم النقدية قد اختلف من ناقدٍ لآخر ، فابن سلام يُعَوِّل على هذه الآراء بشكل واضح ، يقول : « واحتجنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء »^(١)، إن ابن سلام يُفَاضِل بين الشعراء مُحْتَجًّا لكل شاعر بما وَجَدَ له من حُجَّة ، مضافًا إليها رأى الجماعة من العلماء لا الآراء الفردية ، إلا عندما يكون هذا العالم ذا رأي صائب وحُجَّة نافذة.

وقد أورد ابن سلام مثل هذه الآراء النقدية واعتمدها حُجَّة من حُجَجِه النقدية ، وما ذاك إلا لثقتَه المطلقة فيها ، وكيف لا يثق فيها وهو القائل في أصحابها « ليس لأحدٍ - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا أن يُروى عن صُحُفِي ، وقد اختلفت العلماء بَعْدَ في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحدٍ أن يخرج منه »^(٢).

فيذهب إلى ضرورة الأخذ عن أهل العلم بالشعر والالتزام بما اجتمعوا على قبوله ، فهم المرجع الذي يُحْتَكَمُ إليه في قبول الشعر أو رفضه ؛ لأنه « لا يَشْكُلُ على أهل العلم بالشعر زيادة الرواة ، ولا ما وضعوا ، ولا ما وَضَعَ المَوْلَدون »^(٣)؛ فالشعر لا يستطيع معرفته والحكم عليه إلا أهله ، وَمَنْ رَسَخَتْ أقدامهم فيه ، فالناقد المُتَخَصِّص وحده هو الذي يستطيع تمييز جيد الشعر من رديئه ، كما يضع أيدينا على خبايا هذا الفن وعناصره الجمالية.

فابن سلام يُقَرِّر أن « الشعر يعلمه أهل العلم به »^(٤)، مشيرًا إلى استقلالية النقد الأدبي ، ومؤكِّدًا دور الناقد الحاذق ، وضرورة أن يكون له حُجَج يحتكم إليها في نقد الشعر. قال قائل لخلف : « إذا سمعتُ أنا بالشعر أَسْتَحْسِنُهُ فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك ، قال : إذا أخذت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصَّرَاف : إنه رديء ! فهل

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص ٤.

(٣) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، ص ٤٦.

(٤) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٧.

ينفعك استحسانك إياه؟»^(٥)، وفي هذا بيان لأهمية الناقد المتمرس المُثَقَّف الذي يستطيع استخلاص الجيد من الأشعار، وهو ما يعني أن العرب قد فطنوا إلى أن تذوق النصوص الفنية والحُكم عليها مُنوطٌ بذوي الخبرة من النقاد الذين تدربوا ومارسوا العديد من الأعمال الفنية الجيدة.

وقد اعتمد ابن سلام على آراء العلماء والرؤاة الثقات في ترتيب الشعراء في الطبقات ، فنراه عندما يُقدِّم امرأ القيس يتكئ على آراء العلماء الذين احتجوا بأنه سبق الشعراء إلى أشياء كان له فضل ابتداعها ، ونالت الاستحسان ، واتبعه فيها الشعراء ، يقول : « فاحتج لامرئ القيس من يُقدِّمه قال : ما قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتَّبَعْتُهُ فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتَّكْبَاءُ في الديار ، ورقَّة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشَبَّه النساء بالطِّباء والبيض ، وشَبَّه الخيل بالعُقبان والعِصِي ، وَقَيَّدَ الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى»^(٦) ، كما أنه كان مُقدِّمًا في فن التشبيه ، وأكَّد ذلك بقوله : « كان أحسن أهل طبقة تشبيهًا»^(٧).

وإذا أنعمنا النظر في هذه الحجج والآراء لوجدنا أن ابن سلام يُورِدُهَا دون تدخل بالزيادة أو النقصان ، وهذا يَدُلُّ على إقراره وموافقة لها ، بدليل تقديمه لامرئ القيس ، وأمثلة الاحتجاج بآراء العلماء التي يسوقها من غير تدخل منه كثيرة.

ولم يكن ابن سلام يجد حرجًا في سؤال معاصريه من العلماء عن منزلة بعض الشعراء ، فلقد سأل بشارًا العقيلي عن مكانة جرير والفرزدق والأخطل في الشعر فَفَضَّلَ جريرًا على الاثنين^(٨).

ولعلَّ الحُجَّة في قبول ابن سلام هذه الآراء دون تعليل أو تحليل تكمن في أن هذه الآراء لها من « القدسية والمكانة عند علماء عصرها بدرجة أصبحت نتائج دون مقدمات ؛ ولذا فهي ليست محتاجة إلى تحليل أو تعليل ، سواء من القائل أو السامع ؛ لأن كليهما يعرف ماذا يريد من الآخر»^(٩).

ونعتقد أن جزءًا كبيرًا من هذه الحجة راجع إلى الحجة الأولى المُتمَثِّلَة في المقياس الزمني ، أو قل بلغة موجزة تقديس القديم شعرًا ونقدًا ، إبداعًا وفكرًا ، فكما أن النقاد

(٥) المصدر السابق ، الجزء نفسه ، الصفحة نفسها.

(٦) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٥٥ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ١٣٤.

(٧) ابن سلام : المصدر السابق ، الجزء نفسه ، الصفحة نفسها .

(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٤.

(٩) عبد الواحد الشيخ : قضايا النقد الأدبي والبلاغة ، ص ١٩٤.

المحافظين وعلى رأسهم ابن سلام ، يحاولون وضع قيوداً للشعراء ، ويجعلون من الشعر القديم بتقاليده الفنية أنموذجاً يُحتذى ، كذلك فإن آراء أساتذتهم وسلفهم ينبغي أن تكون هي الأخرى نموذجاً يُحتذى ، فما أقرّوه قبل ، وما رفضوه أنكر على أصحابه .

ولا يرجع ابن سلام إلى كل من قال كلمة من الأسلاف ، ولكنه يرجع للمتخصصين منهم ، « فللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات »^(١٠) ، وهذا ما أكدّه الآمدي من بعد في القرن الرابع الهجري ، فيقول : « فإني أدلك على ما ينتهي به إلى البصيرة والعلم بأمر نفسك في معرفتك بهذه الصناعة أو الجهل بها ، وهو أن تنظر ما أجمع عليه الأئمة في علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض »^(١١) ، فأحكام الناقد المتخصص العالم بصناعة النص الأدبي لها مصداقيتها التي اكتسبها من إدامة النظر في الشعر ، وطول الملاسة له ، وهذه الحجة لها ميزتها وعيبتها ؛ فأما المزية فتتمثل في احترام آراء القدماء من أصحاب الصناعة وتقديمهم ، أما المآخذ ، فتكمن في كونها دعوة للتواكل عليهم في بعض الأحيان ، وعدم التجديد ؛ لأنهم يرون كل جديد بدعة ؛ لأن القدماء لم يذكره .

هذا ، وإن اتكأ ابن سلام على آراء العلماء في أحيان كثيرة ، إلا أننا يجب ألا نغفطه حقّه ، ذلك بأن له مواقف تثبت أنه كان يتدخل ويؤدي رأيه في ثقة وجراءة ، يقول في كُنْثَر : « وكان كُنْثَر شاعر أهل الحجاز ، وإنهم ليقدمونه على بعض من قدّمنا عليه ، وهو شاعر فحل ، ولكنه منقوص حظّه بالعراق »^(١٢) ، فهو هنا قد خالفهم وقدّم عليه غيره ، وهذا الاختلاف راجع إلى ذوق كل ناقد أو راوية ، وتفضيله الشخصي لشاعر على آخر ، فالناقد في حكمه وتفضيله لشاعر على آخر « يُنبئ عن مزاجه وذوقه وثقافته ، ومبلغ تأثره ونوع هذا التأثير ، ولكل ناقد شاعر يؤثره ، ولكل بلدة شاعر تؤثره دون عصبية ، ولا انحراف »^(١٣) .

وهكذا حرص ابن سلام على عرض آراء العلماء من لغويين ونحاة عند تقديمه للشعراء ، ومن العبارات التي تكررت كثيراً عنده ، ويتضح فيها اتكاؤه على آراء العلماء ، قوله : « وقال من احتجّ لفلان » ، و « أجمع الناس على شاعرية فلان » ، « وقال أهل النظر » ، « وأخبرني فلان »^(١٤) ، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول إعادة النظر في تلك الحجج والأحكام وصياغتها

(١٠) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(١١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

(١٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ .

(١٣) طه إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ٥٦ .

(١٤) انظر : ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ .

من جديد ، ويرى إحسان عباس أنه « عاد إلى المبادئ القديمة ، فمنحها شكلاً جديداً ، وَوَسَّعَ فيها ، أو غيّر بعض التغيير في مدلولها ، وحاول أن يخلق نظاماً جديداً لدراسة الشعراء »^(١٥).

أما ابن قتيبة فلا يختلف كثيراً عن ابن سلام ؛ إذ استنار بآراء العلماء ووقف عندها ، يقول أثناء حديثه عن الطبع والتكلف في الشعر : « والمتكلف من الشعر وإن كان جيداً مُحْكَمًا ، فليس به خفاءً على ذوي العلم ؛ لِتَبَيَّنَهُمْ فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجةً إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه »^(١٦).

فالعلماء بما لديهم من ملكة تذوق ودربة ومران بالشعر وحدهم القادرون على أن يعرفوا المطبوع من المتكلف ، فأهل العلم عند ابن سلام هم ذوو العلم عند ابن قتيبة.

وقد كثرت استعانة ابن قتيبة بآراء العلماء إلى الحد الذي جعل عبد الحميد الجندي يأخذ عليه كثرة اتكائه على آراء غيره ؛ مما يُغَايِرُ ما نصّ عليه في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) من أنه لن يتبع سبيل التقليد في الحكم على الشعر والشعراء^(١٧).

بيد أن شخصية ابن قتيبة تظهر واضحة في غير قضية ، ففي حُجَّةِ القَدَم والحداثا نراه يرفض كل ما هو قديم لمجرد قدمه ، ويدعو النقاد إلى الخروج على الأحكام النقدية الجائرة ، والنظر في الشعر من حيث هو شعر ؛ وأن يُبَرِّئَ كُلَّ منهم نفسه من كل هوى وميل.

ومن عبارات ابن قتيبة التي يظهر فيها اتكاؤه على آراء العلماء : « ومما أخذه العلماء عليه » ، و « ويستحسن من شعر فلان » ، و « مما قيل في تقديم فلان »^(١٨).

أما ابن المعتز فيستند في حكمه على الشعر والشعراء في الأغلب الأعم على ذوقه الشخصي ؛ ولأنه ناقد تأثري النزعة^(١٩)، نراه يُطَلِّقُ أحكامه في لحظات إعجاب وتأثر دون تعليل أو تحليل ، بل يشهد في كثير من المواضع بالحُسنِ كله للشاعر في جلّ شعره ، لا سيما أن معظم شعراء طبقاته من أقرانه من المحدثين ، الذين لم تكن الآراء قد نضجت واكتملت فيهم بعد ؛ فيقول عن البحتري : « والبحتري لا يكاد يغلظ لفظه ، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة »^(٢٠) ،

(١٥) إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ٨٢.

(١٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ٨٨.

(١٧) عبد الحميد الجندي : ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، ص ٣٠٢.

(١٨) انظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ،

١٧٦ ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ ، ٥٧٥ ، ٧٥٤ ، ٧٦٥.

(١٩) إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ١١٧.

(٢٠) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٨٦.

أما عند حديثه عن أبي تمام فيقول : « ومما يُسْتَمَلَح من شعره - وشعره كله حسن »^(٢١) ، ويقول : « وأكثر ما له جيد ، والرديء الذي له إنما هو شيء يُسْتَعْلَق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا »^(٢٢) .

وعلى الرغم من أنه أنصف أبا تمام في كتابه "طبقات الشعراء" ، ووَصَفَ شعره بأنه كله حسن ، إلا أنه في كتابه "البدیع" يقف موقفًا مغايرًا منه ، فنعتَه بأنه أفرط في استخدام البدیع ؛ حتى أدى به هذا الإفراط إلى الإساءة أحيانًا ، وتلك عُقْبَى الإسراف وثَمَرَةُ الإفراط^(٢٣) .

ومن ثَمَّ فإن آراءه النقدية لم تَخُلْ في مجملها من الانطباعية التأثرية ، فذهب إلى أحكام عامة ؛ إذ جعل شعر بشار كله حسنًا ، كما أن شعر مسلم بن الوليد كله ديباج حسن لا يدفعه عن ذلك أحد ، وكذلك شعر أبي تمام ، « أما أشعار العتابي كلها عيون ، ليس فيها بيت ساقط »^(٢٤) .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٢٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢٣) ابن المعتز : البدیع ، تحقيق : إغناطيوس كراتشكوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ١ .

(٢٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٦٣ .